قصة مصرية قصيرة

كيف صنع القضاء ؟

بقلم الاستاذ أحمد الشرباصي

فتح الباب بشدة، ولا أدري كيف فتح ، ودخل صديقي عليّ هائجا مائجا ، كأنما قد خرج من معركة حامية الوطيس تعرض فيها لبذل النفس والنفيس وبدا له خلالها شبح الموت مرات ومرات ، ولكنه بقدرة قادر نجا منه وابتعد عنه ؛ واكتسب لنفسه ما كان يطمع فيه من فوز ونصر ، وما كاد الصديق الثائر يقف أمامي حتى بدأ يردد والعرق يسيل منه :

كفى إني نفضت يديّ منها ومزق عن بصيرتي الغشاء !!

فأجبته وأنا بين السخرية والرثاء : وأي غشاء ذلك ياصديقي ؟ ومن تلك التي نفضت يديك منها ؟ ! . . . وكأنه لم يسمع حرفا مما قلت ، بل لعله لم يلق بالا الى ماقلت ، فعاد يصرخ ، وكأنه ممثل قدير يؤدي دوره فوق مسرح :

كفى ، اني نفضت يدي منها

ومزق عن بصيرتي الغشاء !!

فرأيت أن أجدى وسيلة معه هي أن أدعه يهذي ويردد مايقول حتى يشفي ذات فؤاده مما يريد، فظل يكرر هذا البيت عدة مرات ، وكأنه يحاول ان تكون كل مرة مخالفة لغيرها ، فتارة يخفض صوته ، وتارة يعليه ، وتارة يسرع في تلاوته ، ويصل كلماته بعضها ببعض ، وتارة يقف على مقاطع البيت ، وكأنه يريد أن يؤكد ويثبت في ذهنه وأذهان سامعيه مايقول :

وبعد برهة من الزمن جلس الصديق الى جانبي ، وبدا عليه الهدوء والوقار ، وبدأ دون سؤال يقص قصته:

... أنت تعلم ياصديقي انني نشأت في بيئة محافظة ، ترى في الاخلاق رأس مالها ، وفي الاستقامة سبب عزتها ، وقد عشت صدر شبابي وانا منطلق في سبيلي أجاهد لتحقيق الآمال التي أرادها لي أبي ؛ فنجحت في دراستي ، وتخطيت سنوات التعليم مسرعا فائزا ، فأنا دائما — ولا فخر في ذلك — احتفظ لنفسي بالطليعة بين اقراني وزملائي ، وكانت حياتي متواضعة هادئة لاترف ، فيها ولا اسراف ، فانا أعيش كما تعيش العامة من الدهماء في مصر ، حسبي كساء يسترني ، ولقمة تقيم أودي ، وحجرتي تضمني أثناء الليل ، وكانت المرأة أبعد شيء عن حياتي ؛ فانا ابن فلاح ، نشأت في بيئة ريفية محافظة ، تصون المرأة صغرت أو كبرت في الخدور المستورة والأكنان المحجوبة ، وكثيرا ما كانت أمي الحبيبة إليّ العزيزة عليّ تردد على مسمعي ان سبب الفساد في الحياة هو ان يعرف الشاب الطريق الى النساء ، فكنت بعيدا عن هذا المحيط لظروف بيئتي من جهة، ولحذري الناشيء عن وصايا أمي الغالية من جهة اخرى . . .

ولكني انتقلت ياصاحبي بعد سنوات الى القاهرة ، وما ادراك ما القاهرة القاهرة المليئة بالعجائب والغرائب، والمدهشات والمحيرات والمضحكات والمبكيات، ورأيت الشوارع المكدسة باللحوم النسائية المختلفة فكان يدركني مايدرك القط الجائع يرى أمامه لحما مكشوفا بلا حارس فيهم بالهجوم عليه ، ولكن بقية من دين وخلق كانت تصدني عما يريده لي الشيطان ، واخذت استنفد وقتي وجهودي في دراستي العالية

وكان يجاورني في المنزل فتاة مات أبوها وهي صغيرة ، فبقيت في رعاية امها الفقيرة مع اخوة لها واخوات ؛ لا يزالون صغارا ، وكنت اسمع عن مشاق هذه الاسرة المسكينة ومتاعبها مايضايقني ويؤلمني ؛ ولكن اسبابي لم تتصل باسبابها لان الظروف لم تهيء لنا ذلك الاتصال ، ومع هذا كنت ارى الفتاة اليافعة من حين لحين، وهي تهبط الدرج ، او تتطلع من النافذة ، فاسارع بالفرار كاني هارب من حمى جريمة لايليق بي ان اشهدها

فضلا عن الاشتراك فيها .

وذات يوم دق الباب فسارعت بفتحه ، فاذا انا وجها لوجه أمام هذه الفتاة البائسة ؛ ففسحت لها الطريق حتى تدخل ولما استقرينا المقام وانا شديد الخجل والحياء ؛ التمست حين احييها اواجاملها بعبارات اللقيا المتعارفة قالت: ان امي ترجوك ان تساعدني في شرح دروسي حتى احسن الاستعداد للامتحان القادم بعد اسابيع . .

ان هذا اليوم لاينسى ياصديقي ، فقد كانت اول مرة انفرد فيها بالجلوس الى فتاة يافعة ، وتذكرت مايقال عن فقر هذه الاسرة ونكبتها في عائلها فشعرت ان الواجب يقتضيني الاخلاص في اداء تلك المهمة مهما كانت الظروف ، ولا اطيل عليك فقد تكررت زيارة الفتاة ، وطالما جلست امامي الساعات الطوال وانا اشرح لها غوامض مسائلها العلمية ، وقد نسيت ان اصفها لك ، فحسبي في ذلك ان اقول انها متواضعة في كل شيء فليس لها من ملونها اوقامتها او اطرافها ما يغري بها او يدفع الى التفكير فيها . . .

ولكن مالي ولهذا ؟ .. انني ماكنت افكر فيه اوفيما يقرب منه ، لقد كنت افكر في حاجتها الى العطف والمساعدة والمعونة ، واحسست نحوها بشفقة وحنان ، ورحمة ولطفة ، فعاهدت نفسي ان امد اليها كل ما استطيع من ايدي المساعدة والمساعدة ، فوقتي لها ، وعلمي في خدمتها ، وبيتي مفتوح امامها ، ومالي قسمة بيني وبينها ، يصلها الكثير منه عن طريق غير مباشر ، فقد كنت حريصا على ان لا اجرح كرامتها اوامس شعورها . .

ومرت الايام ، تارة تتشابه ، وتارات تختلف : فبعضها يبطيء وبعضها يسرع وجانب منها يسر ، وجوانب تسوء ، واحسست ان هذه الفتاة البائسة قد صارت جزءاً من حياتي ، وقطعة من كياني فانا لاطيق فراقها ، ولا استطيع البعد عنها ، وكان عطفي العميق عليها قد تولد منه شعور عميق دقيق وثيق ربطني بها ووقفني عليها ، وكنت اقول لنفسي : ان يكون لي من هدف في حياتي الا ان اسعد فتاتي ، فرضا ضميري وسعادة قلبي في ان اراها وقد نسيت مارماها به الزمن من نكبات . .

وتجرأت الفتاة يوما بعد يوم ؛ فجعلت تشير وتلمح ، ثم توضح وتصرح ، وتقول انها أسيرة فضلي ونعمة معروفي ، وانها لن تستطيع مهما بذلت ان تكافأني ، وانها قد نذرت نذرا لايقبل التردد او الشك ان تظل حياتها تحرق بخورها أمامي ، وتذيب فؤادها قطعا لشكري ؛ فقد كنت لها كما قالت ابا وأخا ورفيقا !!

ومرت سنوات ، وأتممت دراستي ، وشغلت وظيفة متوسطة فزادت عناية الفتاة بأمري ، واشتد اقبالها علي بينما انبسطت يدي أكثر من ذي قبل ، وجاءتني امها على استحياء اولا ؛ وفي اعتياد أخيرا ، فجعلت تحدثني عن الزواج وسعادته والبيت وحاجته الى من تدبره وتصونه ، وفهمت ماتريد ، ووافقتها على مانقول ؛ فجعلت عيناها تبرق بالامل وتشع بالرجاء . . .

وطافت بالقاهرة ياصديقي كما تعلم طوفة اجتماعية استدعت القبض على الكثيرين ، وكنت من بين هؤلاء ، وقدمت الى القضاء وكانت التهمة قاسية ؛ والاسباب للادانة دانية ، وحيل بيني وبين عملي وراتبي ، ومكثت أنتظر الكلمة الفاصلة ؛ وكنت اتوقع ان يفرط في أمري والعناية بشأني الناس جميعا حتى أهلي الذين نسيتهم هناك في القرية ولكني لم أكن اتصور ان تفرط هذه الفتاة ؛ ومع ذلك فرطت ، فلا زيارة ولا خطاب ولا سؤال ، بل ولا احياد ، فهامي ذي الانباء تأتيني بأنها القت حبالها الى صديق جديد كان زميلا لي ولكنه لايزال براتبه ! . . . ومرت اسابيع ، ونجوت بأعجوبة من الادانة ، وعدت الى عملي ، فجاءت الي تسعى ، فقلت لها :

اذهبي للجحيم ، لاأريد البيل فان الهوى وهي وتداعى

اتدري الآن ياصديقي ، لماذا كنت اردد البيت السابق كالمجنون ؟ ! ... لقد شفيت ؛ ومزق الغطاء عن بصيرتي ، وعلمت ان الامر حق كما قال القائل :

وزهدني في كل خير فعلته
الى الناس ماجربت من كثرة الغدر

القاهرة . احمد الشرباصي